سينما

في مناسبة يوم المهاجرين العالمي، احتضنت «متروبوليس أمير صوفيل» (الأشرفية) الأسبوع الماضي شريطاً بدعم من منظمة العمل الدولية، «شكراً صوما» (55 د ـ 2018) وثائقي حمل توقيع المخرجة اللبنانية التي تأمل أن يساعد عملها في «تغيير المواقف ويؤدي إلى تحسينات حقيقية. لقد شاركت صوما ونور قصتهما بشجاعة مع العالم، أملاً في الهام التغيير». يهدف الشريط إلى تغيير النظرة السائدة إلى العاملات والعمّال المنزليين المهاجرين. على أن يعرض لاحقاً في المدارس والجامعات في عدد من الدول العربية

نور وصوما في سيرلانكا

العاملات المنزليات بعدسة كارول منصور
«شكراً صوما»... والشكر موصول بنظام الكفالة!

أحمد محسن

منذ ثلاثين عاماً و«صوما» تقيم مع العائلة. تغسل الصحون منذ ثلاثين عاماً، وتمسح الغبار منذ ثلاثين عاماً. لا يمكنها أن تتقاعد، ولا يوجد تقييم عادل لأجرها، ولا تعويض لديها في الضمان الاجتماعي. وغالباً، بما أننا في لبنان، يمكننا أن نفترض، أن في الحيّ حيث تقيم، ثمة من يسمّيها «السيرلانكية»، أو «سيرلانكية ال كذا». تعرف من لبنان القذائف وتتذكر الحرب. لم تر أرز البارووك، ولم تتناول الكبة النية مع العرق على ضفاف النهر. لم يعد يوجد نهر في لبنان. ولا بحر قريب من الجبل ولا العكس. تقيم في المنزل وتعمل في المنزل، وحياتها كلها هنا في سجن المنزل. العائلة التي تسكن معها طيبة. المدام وبابا ونور وحمودي. ولكنهم ليسوا أهلها في النهاية. صار عمرها 57 عاماً، ولديها أحفاد تتحدث معهم عبر وسائط الفيديو، ولكنها تقيم هنا في لبنان، وهو ليس مكان عيشها في الأصل. والدها ووالدتها مسنان. وغالباً، لا يعرفان الكثير عن عقد التفوق في لبنان، وعن تحول الدفاع عن العائلة إلى موضة، وعن «الأشاوس» الناشطين، وعن الجمعيات الأهلية التي «تملي» على الصحافيين والصحافيات ما يكتبونه، وكيف يقولونه، عن العبودية والمرأة و«تأخر» الشرق عن «ركب» الحضارة. من هنا، يمكن القول إن النقطة الإيجابية الأولى في فيلم «شكراً صوما» (55 د ـ 2018) لكارول منصور، هي «صوما». فهي تعرف أكثر بكثير مما يتخيّله «الناشطون» الذين يعملون بجهدٍ على ملء عقولهم بالـ«الحضارة»، وبتعلم الحضارة، من مراجع ليست صاحبة تجربة أكثر منهم، أو فهماً، إنما هي مراجع تعتقد أنها تملك «مفاتيح» الحضارة. وهي مفاتيح «بيضاء» طبعاً. ويمكننا أن نسأل صوما وأهلها وجيرانهم عن الكولونيالية وعن آلية «استجرار» الحضارة؛ في هذا السياق، يجب أن يشاهد شريط «شكراً صوما»، أو أي شريط من ذات الصنف. لا ينبغي إهمال هذه النقاط، ونقاط أخرى كثيرة، عندما نتحدث عن وضع العاملة الأجنبية. وفي لبنان يجب الانطلاق من أرضية صحيحة، وليس من الهواء. من حقيقة الظلم والتمييز ونظام الكفالة، في موازاة «التمييع» الذي مارسته وتمارسه جمعيات وناشطون وحكواتية، يستثمرون بسفاهة في الأزمة.

يقترح الفيلم، حتى مرحلة متأخرة جداً منه، سردية تقريباً معروفة. عائلة بنكية بورجوازية، أفرادها طيّبون، وتقيم معهم العاملة، منذ ثلاثين عاماً. ويحبّ الطيّبون العاملة. وحتى الآن، كل شيء «طبيعي». فهي «إنسان في النهاية»، ويمكن أن يحبّونها، حتى ولو أنها «تعمل لديهم». سيحبّونها إلى درجة أن نور، الابنة المدللة للعائلة، تقرر الذهاب إلى سيرلانكا، للتعرف إلى حياة «صوما»، وإلى عائلتها. ستكتشف هناك أن المنزل «ليس كالمنازل في دول العالم الثالث»، كما توقعت، وأن كل شيء «مرتب». لفتها أيضاً أنها وجدت «كتباً ودفاتر». كتب ودفاتر في سيرلانكا، ليس فيلة فقط. والحق، قبل إطلاق التهم المتعسفة، أن هذا ليس ضدّ نور، وهذه إيجابية أخرى في الفيلم. شجاعة الابنة على الاعتراف، وقبل ذلك المواجهة، وإن كان الشكل الذي يقترحه الشريط في البداية للمواجهة شكلاً هزيلاً. لكن ما هو محيّر، لماذا يدور الشريط حول نور، وليس حول صوما. وإن كانت الإجابة ـ مهما حاولنا التنصل منها ـ تقفز بوضوح إلى أمامنا، على نحو لا يمكن تجاهله. مركزية نور، بالمقارنة مع «صوما»، كما هي حال، مركزية رأس المال، عند مقاربة أي مسألة طبقية. فرأس المال ليس درساً محفوظاً، أو معادلة اختبارية، بل هو، كما يسميه حميد دباشي «مختلط أيديولوجياً»، وهو بذلك جاهز للهيمنة على أي ثقافة. حتى أنه، في حديث مشترك بين نور وصوما، هناك قرب المعبد البوذي الكبير، تمازحها العاملة بالقول: «من مالك». وكأن هذا المال، يبقى مالاً مشروطاً، وليس حقاً مكتسباً أو أجراً على عمل.

> لا يمكن تحميل نور، المُحبّة لصوما وزر علاقة شائكة ومعقدة وطويلة، بين رأس المال والعامل

لا يمكن تحميل نور، المُحبّة لصوما وزر علاقة شائكة ومعقدة وطويلة، بين رأس المال والعامل، بين النزعة البيضاء وبين ضحاياها. لا يمكن تحميل فرد واحد عبء هذه المباحث، خاصةً وأن نور، حاولت وأعلنت في نهاية الفيلم، أن «الأمور تغيّرت بعد رحلتها». وأن لصوما حياة يجب أن تكون مختلفة. لكن، يجب أن نتذكر أنه منذ ثلاثين عاماً و«صوما» تقيم مع العائلة. تغسل الصحون منذ ثلاثين عاماً، وتمسح الغبار منذ ثلاثين عاماً. لا يمكنها أن تتقاعد، ولا يوجد تقييم عادل لأجرها، ولا تعويض لديها في الضمان الاجتماعي. ولا أحد في الشريط سألها عن رأيها في كل هذا. إنما سئلت عن «الطفولة»، كما لو أن علينا أن نكتشف أنه كانت لديها طفولة، أم أن هذا ليس معروفاً. وتحدثت كثيراً عن المدرسة، كأننا يجب أن نفاجأ هنا، أنه كانت لديها مدرسة، وأن لديها زوجاً، أحبته منذ كانت طفلة، وأنه استغلها، وصار سكيراً. منذ ثلاثين عاماً، وهي تعاني من أشياء أخرى، ويجب أن تسأل عن رأيها فيها. شكراً «صوما» وهكذا ينادونها منذ ثلاثين عاماً. ولكن علينا أن ننتبه أن «صوما» تفضّل اسمها الأصلي وإن كان طويلاً، وأنها لا تحب أن يقال لها «صوما». ولا يمكننا أن نعرف، أو نفترض، أو نجيب عنها. ورغم التغيير الشجاع الذي تعترف به نور، في نهاية الرحلة الاستشراقية إلى سيرلانكا، حين تقول إن هذه ليست حياة، وأن صوما لا يجب أن تكون مضطرة لكل هذا. الخلاصة جاءت معاكسة للاعتراف الشجاع، خاصةً أن صوما، تعود إلى لبنان، لتغسل الصحون وتمسح الغبار وتتابع الحياة نفسها التي تستمر منذ ثلاثين عاماً. ولكن إيجابيين قليلاً، و«متعلمين» إلى حدّ بسيط: صوما تحبّ العائلة والعائلة تحبّها. وهذا «أشفى حالاً» ربما. ماذا عن البقية؟ شكراً صوما، والشكر موصول بنظام الكفالة!

صوما مع حفيدتها

على الشاشة

«ثورة الفلاحين» بارقة أمل للدراما اللبنانية؟

عدي رعد *

حصد مسلسل «ثورة الفلاحين» (حوار كلوديا مرشليان، إخراج فيليب أسمر، إنتاج «إيغل فيلمز» لجمال سنّان) متابعة غير مسبوقة وحيزاً كبيراً من يوميات المشاهدين في لبنان، لما تميز به من ضخامة في الإنتاج، وإخراج جميل وحشد من الممثلين لهم جمهورهم العريض. تميّز المسلسل بجمال الديكورات وضخامتها وكمية إبهار كبيرة وصلت حد المبالغة. يسجل للمسلسل ولمنتجه هذه النقلة النوعية في كلفة الإنتاج في الدراما اللبنانية رغم أنّ ذلك محفوف بالمخاطر وبالتأكيد لن يرد كلفته. إلا أن المنتج غامز وربح الرهان وفرض على الجميع سقوفاً جديدة للإنتاج تحترم عقل المشاهد وذكاءه وتحترم قيمة الدراما اللبنانية، مع تسجيل أنّ «مركز بيروت للإنتاج» قد سبقه إلى ذلك حين سخا في إنتاج مسلسل «الغالبون 1-2». بالعودة إلى «ثورة الفلاحين»، لا بدّ من البدء بتشريح العمل عبر تناول عناصره التالية: النص، الإخراج، الموسيقى، الديكور والملابس، المونتاج والممثلون.

تميّزت كلوديا مرشليان بتسجيل الخيبة تلو الأخرى، وبظاهرة ترافق أغلب أعمالها تتلخص في ارتفاع سقف التوقعات حين الإعلان عن العمل وانخفاضها حين مشاهدته. وهذه لازمة لا أعلم من المسؤول عنها: هل هو الإعلان المبالغ فيه أو اللجوء إلى ذلك لضرورات التسويق؟ في «ثورة الفلاحين»، وكما يُستدلّ من اسمه، يذهب تفكيرك إلى استحضار طانيوس شاهين وثورته. تعتقد بأنّ المسلسل سيتناول حقبة مهمّة من تاريخ لبنان. كيف يا ترى سيتناول المسلسل ملابسها، حواراتها، مفرداتها، ولهجتها؟ فإذا بالمسلسل لا علاقة له بطانيوس شاهين ولا بثورته ولا بعصره. هو فقط استعار منه الاسم. حتى إنّه لم يستعر منه بيئته أو أجواءه، فصار المسلسل عبارة عن حكايات الجدات عن ظلم البيك والإقطاعي. تمرّ الحلقات الطويلة من دون أن تندلع تلك الثورة وتنتظر، وتنتظر، وتنتظر... يُذبح الفلاحون، يُغتصبون، يُشنقون، يُنكل بهم ولا تندلع الثورة. متى ستندلع هذه الثورة إذن؟

ربما لن تندلع لأنّ الفلاحين قد أبيدوا عن بكرة أبيهم ولم يتبق منهم من سيقوم بهذه الثورة؟ أو ربما عدد الحلقات الكبير (60 حلقة) فرض هذه «المطمطة» لتقتصر أحداث المسلسل على قصص الحب المتطايرة من كل حدب وصوب، تسير ببطء وتتكرر مواقفها وحواراتها، واستعارتها أحياناً لمواقف وحوارات من أعمال أخرى كما في مشهد امتناع الفلاحين عن تلبية دعوة البيك (نقولا دانيال) للتحاور معهم. فهو مأخوذ بفكرته وحواره من مسرحية «ناطورة المفاتيح» للأخوين الرحباني، حتى إنّ الممثل نقولا دانيال حاول أن يقلّد أداء الكبير انطوان كرباج في المشهد. في كل الأحوال، لو لم يتلطّ النص وراء اسم «ثورة الفلاحين»، لما كانت كل هذه المحاكمة له، وما كان يجب علينا تحميل الأمور أكثر مما تحتمل. وربما كنا اكتفينا بالتهكن بأنّ السيد سنان طلب من السيدة كلوديا قائلاً: فيكي تكتيبلنا مسلسل متل «حريم السلطان»؟ فأجابته: طبعاً، وكان له ما أراد. (أقول ربما). في كل الأحوال، لو اكتفى المسلسل بعدد 30 حلقة فقط، كان ليكون أفضل من حيث الحبكة وتكثيف الأحداث.

في ما يخص الإخراج، يكرّس فيليب أسمر نفسه يوماً بعد يوم مخرجاً من العيار الثقيل. جميل الصورة، أنيق الإضاءة، رشيق التقطيع. فيليب أسمر مخرج كبير من لبنان. أما الموسيقى، فكانت رائعة ومناسبة جداً لأجواء العمل. شكراً إياد الريماوي. وعند التوقف عند الديكور والملابس، لا بد من الثناء على عمل الأستاذ نصري طوق وعلى براعته وفنّه الراقي. لقد أبهرنا بجمال ديكوراته ومطابقتها للعصر الذي تدور فيه أحداث المسلسل. كانت ديكوراته ساحرة ومبهرة وواضح السخاء الإنتاجي عليها. إلا أنّه وقع في المبالغة، فـ«الزائد أخو الناقص» كما نقول بالعامية. «التعجيق» الذي كان في الديكورات من حيث كمية الأكسسوارات، مبالغ فيه جداً. فكنا نبذل جهداً كبيراً لنكتشف وجود الممثل بين الثريات والشمعدانات واللوحات والشموع. فلا يعقل أن تحتوي غرفة في قصر، على كل هذه التحف والشمعدانات والأكسسوارات، لأنها في الحقيقة تحتاج إلى جيش من الخدم لنفض الغبار عنها. وهذا ليس منطقياً، إضافة إلى طغيانها على كل عناصر المشهد الأخرى (الممثلين، الإضاءة، حركة الكاميرا...) كأننا في محل لبيع الانتيكا لا في قصر.

> جوهرة المسلسل هو الممثل فادي ابراهيم بادائه المخيف والمشوف

أما الملابس فلها بحث آخر. أولاً، لا أعلم إذا كانت السيدة لوسي جرتيديان هي من قرر اعتماد هذه الأزياء أو أنّها نفّذت رغبة صناع العمل. في كل الأحوال، زادت الأزياء من غربة المسلسل عن بيئتنا، فاستحضرت أزياء أوروبا في القرن التاسع عشر وأصبحنا كمن يشاهد مسلسل «الكونت دو مونتي كريستو»، وليس مسلسل «ثورة الفلاحين». وهذا الأمر يدعو للاستغراب. ومما زاده بلّة هو إجابة بطل المسلسل الممثل باسم مغنية في معرض إجابته على هذا السؤال مع هشام حداد بأنّهم أرادوا أن يظهر المسلسل «بأجمل صورة»، وبأنّ هناك مبرراً لذلك وهو أنّ العائلة ثرية وبإمكانها استيراد الملابس من لندن! ومرت الإجابة من دون أي تعليق أو استهجان.

ربما قد فات مصممة الأزياء أنّ لبنان في تلك الحقبة كان يشتهر بأزياء نسائه الجميلة، المصنوعة من الحرير الخالص ومن قماش الدمسكو وبالطرطور. وكانت أهم صادرات لبنان إلى العالم في حينها هو الحرير المصنوع في قرى لبنان. لماذا هذا الفرق الكبير في الشكل بين ملابس البيك وملابس أبنائه؟ هل الثوار في ذلك الزمن كانت هكذا ملابسهم؟ أين ذهبتم بالشروال واللبادة؟ أو مثلاً كان «نورس» الثائر قد شاهد فيلم Pirates of the Caribbean وتأثر بزي بطله فليس مثله؛ ناهيك عن سوالف كارلوس عازار التي تتطابق تماماً مع الموضة التي كانت رائجة في أوروبا، ومستحيل أن تكون هي نفسها الرائجة في لبنان في ذلك الزمن، لما كان سيتطلب الأمر لتنفيذها نحاتاً لا حلاقاً. ملاحظة على الهامش: تمكّن «فايز» من المحافظة على شكل سوالفه كما هي أثناء فترة اختفائه وعيشه في الغابات، وفي بيت مهجور مشرداً (سبحان الله).

لو أن المسلسل أبرز لنا الأزياء اللبنانية في ذلك العصر، لكان ذلك شكّل إضافة جمالية على المسلسل، ولما كنا شعرنا بغربته عن بيئتنا وتاريخنا. لكن هذا لا يمنع من القول بأنّ الأزياء جميلة جداً وتدل على حرفية السيدة لوسي، إلا أنّ المونتاج كان العلّة الكبرى. فلا يجوز لمسلسل بهذه الضخامة أن تمرّ به أخطاء في المونتاج بهذه الطريقة غير الاحترافية. هل يعقل قطع الموسيقى بهذا الشكل بين مشهد وآخر؟ هل يعقل استخدام الفايد (إظلام) للانتقال بين مشهد وآخر في مسلسل بهذه الضخامة؟ هل يعقل استخدام صورة القصر من الخارج المصنوعة بطريقة الغرافيكس ومن «النوعية الرديئة» للانتقال من مشهد إلى آخر؟ مثلاً: هل المشاهد لن يعرف أنه انتقل إلى القصر بعد مشهد يدور في الغابة، إلا إذا وضعنا له صورة القصر (الغرافيكس)، إضافة إلى قطع الموسيقى بطريقة البتر في مشاهد كثيرة؟!

أخيراً، بخصوص الأداء، فقد أجاد كل الممثلين أدوارهم ويستحقون التهنئة، وهذا يثبت أنّ الممثل اللبناني لو توافرت له الظروف الصحيحة، سيبدع وسيقدم أجمل ما عنده. لكن لا بد من التوقف عند تميز أداء بعض الممثلين، أولهم باسم مغنية الذي خرج من رتابته المعهودة في الأداء، ويمكن القول إنّه وصل إلى السرّ الذي يجعل الممثل يتلبس الشخصية التي يؤديها وهذا السرّ هو الخروج من الذات. باسم أصبح في مسلسلي «ثورة الفلاحين» و«تانغو» باسم جديداً. ممثل محترف، وأداء مشوق جبّ كل أدائه السابق الذي كان على طريقة «شوفوني ما أحلاني»، وأصبح يستحق لقب النجم عن جدارة. أما جوهرة «ثورة الفلاحين»، فهو الممثل القدير فادي ابراهيم بأدائه المخيف والمشوق، إضافة إلى أداء كارلوس عازار الجميل والصادق والمتزن، فيما أظهرت ورد الخال بما لا يقبل الشك أنّها وحشة الشاشة بقدراتها المتميزة وإحساسها الرائع. هي تكرست نجمة، صاحبة قدرات خارقة. كما يمكن التوقف عند أداء القديرتين وفاء طربية وهند طاهر، ونقولا دانيال وتقلا شمعون وختام اللحام وبراعة مارينال سركيس وفبفيان انطونيوس وسمارة نهرا. كلمة حق تقال، جميع الممثلين أجادوا أدوارهم وأثبتوا جدارتهم رغم بعض الملاحظات العابرة على بعضهم. في الخلاصة «ثورة الفلاحين» مسلسل إيجابياته أكثر من سلبياته، وهو بارقة أمل للدراما اللبنانية من ناحية رفع سقوف الإنتاج أو من ناحية النوعية.

* ممثل لبناني

«ثورة الفلاحين»: من الأحد حتى الثلاثاء بعد النشرة المسائية على lbci

باسم مغنية في العمل